۱۶۵۶

مجلّه	الفکر الاسلامی
تاریخ نشر	ذی الحجة ۱۳۹۴
شماره	العدد الاول
شماره مسلسل	
محلّ نشر	لبنان
زبان	عربی
نویسنده	محمد المبارک
تعداد صفحات	۴۶ - ۵۰
موضوع سرفصلها	طرق القرآن فی دعوة الانسان الی الایمان
کیفیّت	
ملاحظات	

للأستاذ : محمد المبارك

من الكون في آفاقه الواسعة ، وتنظيمه الخاضع لسنن ، من الانسان نفسه ، في خلقه وتكوينه وفي نفسه العجيبة التي تخفي غرائز وميولاً متنوعة وحالات مختلفة وفي جماعاته المختلفة الألسنة والألوان والقبائل والشعوب المتعاقبة خلال العصور أمماً وأجيالاً ، من هذا كله يوصلنا القرآن إلى الإيمان بوجود الله الخالق البارىء ، القادر الحيّ ، العليم الحكيم ، العلي العظيم ، يخلق ما يشاء ويفعل ما يشاء ، وإلى الايمان بصفات يستلزمها الاستنتاج المنطقي في كل موطن يقف بنا فيه وفي كل شاهد كقوله تعالى : « وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم » .

إن طريق القرآن العظيم في دعوة الانسان إلى الإيمان بالله خالق الكون متعددة المسالك :

١ — فهو تارة يخاطب عقله ويقنعه بالمنطق ويقدم له الدليل في اسلوب حيّ جذاب كقوله تعالى في سورة الواقعة : « نحن خلقناكم فلولا تصدقون ، أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم

تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل امثالكم وننشأكم فيما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون » ...

وهذا الأسلوب المنطقي يتصف أيضاً بالحيوية لما فيه من الأسئلة الموجهة إلى المخاطب والاجابة عليها لتعدد الأمثلة المأخوذة من حياة الإنسان وما يحيط به .

وجميع الأدلة المعروفة في علم الكلام وفي فلسفة ما وراء الطبيعة مبثوثة في القرآن ، ولكن بطريقة حية وبأسلوب يمكن ان تفهمه الخاصة والعامة — ، كل بقدر طاقته ، كما يشير إلى ذلك الشاطبي في موافقاته ، وكما يذكر ابن رشد في (مناهج الأدلة في عقائد الملة) فلو جمعنا أدلة المتكلمين لما خرجت عن مثل : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » .

وفي قصة إبراهيم في (سورة الأنعام) في انتقال منطقي من أفول الكواكب إلى حاجتها الى خالق يبدل ولا يتبدل وإلى من يقدر لها هذه السنة التي تخضع هي لها وكذلك نقاشه مع قومه في (سورة مريم) .

ومن هذه الطرائق المنطقية طريقة تعرف في الرياضيات بتمديد الخط البياني فإذا أمكن معرفة جزء منه أمكن معرفة باقيه واستخراج المعادلة المعبرة عنه، فاستمع الى هذه الآيات التالية :

« الذي خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطعمني ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذي يميتني ثم يحيين ، والذي اطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين » (الشعراء).

« أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من منيّ يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى » (القيامة) .

٢ — ولكن الأسلوب المنطقي الذي نراه جافاً عن المتكلمين

والفلاسفة يمتزج في القرآن الكريم بالأسلوب العاطفي الحي دون أن يدخل الضيم على قوة أدلته وصحة براهينه :

فالقرآن يخاطب الإنسان ويثيره عن طريق منافعه ومصالحه وحاجاته وملذاته وعن طريق قضاياه ومشكلاته، ليحرك تطلعه وقلقه إلى معرفة الحقيقة ذات الصلة بحياته الحاضرة، ومصيره البعيد ويجعله بذلك متهيئاً للتفكير في الله مستعداً لقبول نتائج المنطق المنسجم مع منفعته ويبدو ذلك واضحاً في الآيات التالية :

« والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين . والله جعل مما خلق ظلالاً ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون . فإن تولوا فإنما عليكم البلاغ المبين ، يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون » (١١ النحل) .

لقد أخذ القرآن الإنسان من مواطن اهتمامه في هذا الكون، ومظان منفعته ، ونقله منها إلى الخالق المنعم . فأكسبه بذلك القناعة بمنطق العقل ، والشعور بصلة المنعم ، ليخامر إيمانه النفس فكراً وعاطفة . و (القلب) في القرآن يستعمل لهما معاً متصلين غير منفصلين .

من خلال القضايا الاجتماعية :

وخلافاً كذلك للطريقة المجردة الجافة ، عرض القرآن لعقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر من خلال قضايا الإنسان الاجتماعية الكبرى ، وفي مقدمتها تحرير الإنسان من العبودية للبشر في المجالين : السياسي والاقتصادي وقد وردت سورة طويلة بكاملها تدور حول هذين المحورين: التحرر من سلطان التأله السياسي ، والتحرر من سلطان التأله المالي وهي سورة القصص التي تبرز فيها شخصية (فرعون) القائل : « يا أيها الملأ

ما علمت لكم من إله غيري . و (قارون) الذي كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وكان الهلاك مآل فرعون وقارون ، وكان البقاء لله وحده وبهذه الفكرة تنهي السورة قصة المتألهين على الناس فتنتهي بنا بقوة إلى عقيدة التوحيد ، والإيمان بالله وحده في هذه الآية الخاتمة للسورة : « ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم واليه ترجعون » .

ويبرز القرآن الكريم مضمون العقيدة التي يدعو اليها عن طريق بيان فضلها على العقائد الأخرى التي يعرضها ويرد عليها ويظهر بطلانها وانحرافها فطريق الموازنة بين العقائد هي طريق القرآن .

والقرآن يستعرض اليهودية والنصرانية ويستعرض الوثنية والدهرية المنكرة التي قال أصحابها : (ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) .

ومن خلال مناقشة القرآن لأصحاب هذه العقائد تبرز العقيدة الصحيحة التي يقبلها العقل السليم ، والمنطق السديد ، حتى إن القرآن يرد على أفكار كثيرة دقيقة من أفكارهم كقوله تعالى : (وما مسنا من لغوب) رداً على اليهود الذين زعموا أن الله استراح في اليوم السابع ويورد أحياناً أنواع عقائدهم فمن النصارى من يدعي أن المسيح ابن الله ومنهم من زعم أن الله اتخذه ولداً (على وجه التبني) ، ومنهم من جعله إلهاً أو ثالث ثلاثة ، ولكل من هؤلاء ذكر في آيات من آياته . واما مناقشة العقائد والأفكار الوثنية وتحرير الإنسان منها فكثيرة في القرآن الكريم : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) فصلت. ومثلها قوله (وخلق كل شيء فقدره تقديراً واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون) الفرقان.

درجات الايمان بالعقيدة :

بعد أن تتجلى الذات الإلهية بصفاتها المستلزمة لها والتي تتكرر وتتردد كثيراً في أواخر الآيات وفي ثناياها ، لا يقتصر القرآن على ذلك كما يقتصر العلماء النظريون ، بل ينقل الإنسان من الإيمان بالخالق المقدر المنعم الذي ملأ به نفسه عقله وقلبه إلى عبادته والخضوع له .

« بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه) ، (الانعام) .

ينقله من الإقرار بالله الخالق إلى تعداد نعمه لشكرها .

(أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم) ، (النحل) .

ولاحظ في الآيات التالية من سورة الحج الانتقال من لفت النظر الى قدرة الله وعلمه وصفاته إلى الدعوة إلى عبادته . « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . فاقدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز . الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس . إن الله سميع بصير ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، وإلى الله ترجع الأمور ، يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ، وجاهدوا في الله حق جهاده »

وهنا يبدو الفرق البعيد والهوة السحيقة بين العقيدة النظرية في الفلسفة الإلهية (الميتافيزيك) وعلم الكلام وبين العقيدة الحية في القرآن التي تعقد بين الله والإنسان صلة تتصف بالنماء والزيادة والقوة وما أكثر الألفاظ المعبرة عن صلة الانسان بالله في القرآن الكريم مثل يسبحون ، ويخافون ويرجون ، ويستغيثون ، ويحبون ، ويدعون ، ويشكرون ، ويخشون .

محمد المبارك